The Fadili Epistle of al-Qadi al-Faḍil: An Objective and Technical Study of the Victory Proclamation Issued after the Liberation of Jerusalem (583 AH)

Salama Halil Al-Gharib[(1)*]

(1) Prof., Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Arts, Tafila Technical University, Jordan.

Received: 16/9/2025
Accepted: 1/2/2026
Published: 30/06/2026

* ***Corresponding Author:***
sal_alghareeb@yahoo.ca

DOI:https://doi.org/10.59759/art.v5i2.1466

Abstract

Objectives: This study examines *The Fadili Epistle*, composed by al-Qadi al-Faḍil as a proclamation voiced in the name of Sultan Ṣalāḥ al-Din al-Ayyubi, and addressed to the Abbasid caliph in Baghdad following the liberation of Jerusalem and the Muslims' decisive victory at the celebrated Battle of Ḥattin in 583 AH. The study seeks to shed light on the thematic and artistic dimensions of the epistle, highlighting its portrayal of the triumph over the Franks. Particular emphasis is placed on the principle of expressing joy and exultation, as reflected in the epistle's motifs of glad tidings and festivity. The epistle also reinforces the religious spirit by underscoring adherence to sound doctrine, the adoption of the necessary means to achieve victory, and the contrast it draws between true belief and the corrupted Frankish creed of the Trinity. In this, the epistle served to inspire the soldiers and prepare them psychologically for battle.

Methodology: The research adopts a descriptive-analytical method to examine the text, identifying its thematic issues alongside its literary and artistic features.

Findings: The study describes the atmosphere of joy and jubilation that swept through the Islamic world upon receiving this epistle of glad tidings, which congratulated the faithful on the victory and the liberation of Jerusalem. It also examines the text artistically in terms of its structure, language, style, and rhetorical embellishment.

Conclusion: The research concludes that the epistle holds both historical and literary significance. On the one hand, it is a historical document attesting to the events of a specific period; on the other, it represents a distinguished example of artistic prose writing in the Ayyubid era.

Keywords: *The Fadili Epistle*, al-Qadi al-Fadil, Crusades, rhetoric, proclamation.

الرسالة الفاضلية للقاضي الفاضل
دراسة موضوعية وفنية في خطاب البشارة بعد تحرير بيت المقدس (583 هـ)

سلامة هليل الغريب[1]

(1) أستاذ، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الطفيلة التقنية، الأردن.

ملخص

الأهداف: يهدف هذا البحث إلى دراسة الرسالة الفاضلية التي أنشأها القاضي الفاضل بشارةً على لسان القائد صلاح الدين الأيوبي، موجهةً إلى الخليفة العباسي في بغداد بعد تحرير بيت المقدس، وانتصارات المسلمين في حطين الخالدة سنة 583 هـ.

ويرمي الباحث إلى إظهار ما في الرسالة من قضايا موضوعية وفنية، إضافة إلى إبراز صورة الانتصار على الفرنجة، مع التأكيد على مبدأ إظهار الفرح والسرور من خلال أفكار الرسالة المتضمنة ألوان البشرى ومظاهر الفرح، إضافة إلى تعزيز الروح الدينية عن طريق التأكيد على التمسّك بالعقيدة السليمة، والأخذ بأسباب النصر، وتصوير عقيدة الفرنجة الفاسدة القائمة على التثليث، وفي ذلك شحذ لهمم الجنود وتهيئتهم النفسية لخوض المعارك.

المنهجية: يسعى الباحث إلى دراسة نص الرسالة وفق المنهج الوصفي التحليلي الذي يكشف عمّا فيها من قضايا موضوعية وأخرى فنية.

النتائج: وصف الباحث حالة الفرح والبِشْر التي عمّت العالم الإسلامي عند سماع رسالة البشارة بالتهنئة بالنصر وفتح القدس، كما درسها فنيًّا من حيثُ بناء الرسالة، واللغة والأسلوب، والأثر البديعي فيها.

الخلاصة: توصلت الدراسة إلى عدة نتائج منها: أهمية الرسالة من الناحيتين التاريخية والفنية، فهي من جانبٍ وثيقةٌ تاريخيةٌ شاهدةٌ على أحداث فترة زمنية معينة، ومن جانبٍ آخرَ هي شاهدٌ على لون الكتابة الفنية في العصر الأيوبي.

الكلمات المفتاحية: الرسالة الفاضلية، القاضي الفاضل، الحروب الفرنجية، البديع، البشارة.

□

التقديم:

تمثل الرسالة الفاضلية بشارة بعث بها القائد صلاح الدين الأيوبي إلى الخليفة العباسي ببغداد الناصر لدين الله، يبشره بفتح بيت المقدس وتحريره من براثن أعداء الأمة الإسلامية، إضافة إلى تحرير معظم الساحل الشامي، وإعادته إلى حوزة المسلمين عام 583 هـ، بعد معركة حطين الخالدة، وقد باشر إنشاء هذه الرسالة القاضي الفاضل وزير صلاح الدين وكاتبه، (ينظر ترجمته في ياقوت الحموي، 1993م، ج4/1562–1566. ابن خلكان، 1978م، ج3/158–163. الصفدي، 2000م، ج18/201–230)، وقد تأنق في تحبيرها أيما تأنّق، فشاكل بين مبتدعات إنشائه وبين ما تحمل من معاني البشرى، وفرط السرور.

ولأهمية هذه الرسالة التاريخية والأدبية احتفظت بعض المصادر بنصها كاملًا مثل: كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان، فذكر ابن خلكان سبب توثيقها بأنّها " بديعة بليغة في بابها"(ابن خلكان، 1978م، ج3/179)، فعزم على توثيق بعض أجزائها في مؤلّفه، فذكر إنّه سيختار منها أحسنها، ويترك الباقي لأنها طويلة، ولكن بعد الشروع في تدوينها تراجع عن ذلك قائلًا: " وكان في عزمي اختصارها والاقتصار على محاسنها، فلمّا شرعتُ فيها قلتُ في نفْسي: عسى أن يقف عليها من يؤثر الوقوف على جميعها، فأكملتها ورجعت عن الرأي الأول، وهي قليلة الوجود في أيدي الناس"(ابن خلكان، 1978م، ج3/186)، وواضح من كلام ابن خلكان أهمية هذه الرسالة سواء كانت أهمية تاريخية أم أدبية، ودوّنها كذلك القلقشندي في صبح الأعشى، فأوردها للتمثيل على كيفية مخاطبة دواوين الخلفاء، فنصّ على أنه يجب أن تفتتح المكاتبة بالدعاء للديوان العزيز، فأوردها المؤلف للتمثيل على ذلك. (القلقشندي، 1916م، ج6/496).

وقد اهتم نفرٌ من المحدثين برسائل القاضي الفاضل، ولكن في حدود معرفتي لم أعثر على دراسة خصّت هذه الرسالة بشكلٍ مفرد في بحث متخصص، فهناك من تولّى تحقيق رسائله دون دراستها(ينظر مخلوف، 1967م، تحقيق مجموعة من رسائل القاضي الفاضل)، ومنهم من درس رسائله من وجهة نظر تاريخية لا أدبية (الحلبي، 2013م، رسائل القاضي الفاضل في السياسة في عهد صلاح الدين الأيوبي)، وهناك من درس القاضي الفاضل مبرزًا دوره التاريخي في دولة صلاح الدين الأيوبي (دجاني، 1993م، القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني دوره التخطيطي في دولة صلاح الدين وفتوحاته).

البشارة في اللغة والاصطلاح:

جاء في لسان العرب لابن منظور: "البِشْرُ: الطَّلاقةُ، وقد بشّره بالأمر يبشُرُه بالضم بُشْرًا وبُشُورًا...والمبشِّر الذي يبشّرُ القومَ بأمرٍ خيرٍ أو شرٍّ" (ابن منظور، د.ت، مادة "بشر").

أما رسائل البشارات فهي تلك الرسائل التي تُكتَبُ لأغراض بثّ السرور والفرح في أوساط الخاصّة والعامة؛ تهنئة بإذاعة خبر الفتوح والانتصارات على الأعداء، ووصف ما بذله الجيش الإسلامي وقادته من بطولات لإلحاق الهزيمة بجيش الأعداء وانتزاع أرض المسلمين وممتلكاتهم ومقدساتهم من بين يديه وإرجاعها إلى مكانتها من العالم الإسلامي، حيث القداسة والعزة والتمكين.

والبشارات جنس من رسائل التهاني التي تحمل في طياتها البشائر بأخبار الانتصارات والفتوح، وعادة ما يكتبها كبار الكُتَّاب على ألسنة القادة المنتصرين يوجهونها للخلفاء والسلاطين، واصفين فيها أحوال الجيش الإسلامي المنتصر، كما يصفون فيها قوة الأعداء وكثرة عتادهم، واختلاط أجناسهم، واستماتتهم في قتال المسلمين؛ إلا أن قوة تمسك المسلمين بعقيدتهم الصحيحة مكنتهم من تحقيق الانتصار على تلك الحشود مع كثرة عدتهم وعتادهم.

وجاء في صبح الأعشى في معنى التهاني:" وهي من ضروب الكتابة الجليلة النفيسة؛ لما في التهنئة البليغة من الإفصاح بقَدْر النعمة، والإبانة عن موقع الموهبة، وتضاعف السرور بالعطية، وأغراضها ومعانيها متشعبة لا تقف عند حدّ" (القلقشندي، 1916م، ج5/9). والرسالة الفاضلية عبارة عن بشارة بالتهنئة بفتح القدس؛ فلذا اختار الكاتب كل ما يعبّر عن عِظَمِ هذه المناسبة بما يناسبها من العبارات التي تجلب الفرح والسرور.

الدراسة الموضوعية للرسالة:

قبل الخوض في الرسالة الفاضلية ينبغي تأمل قول الشهاب الحلبي فيما ينبغي فعله من قِبَلِ كُتَّاب التهاني بالفتوح "وإذا كَتَبَ التهاني بالفتوح فليس إلا بسط الكلام والإطناب في شكر نِعَم الله والتبري من الحول والقوة إلا به، ووصف ما أعطى من النصر، وذكر ما منح من الثبات، وتعظيم ما يسّر من الفتح، ثم ما وصِف بعد ذلك من عزمٍ وإقدامٍ وصبرٍ وجَلَدٍ عن المَلِكِ وعن جيشه..."(الحلبي، 1980م، 335).

فرسالة البشارة أو التهنئة بالنصر والفتح لها رسوم يعتني بها الكاتب عند كتابتها، وأول هذه الأمور كما جاء في قول الحلبي السابق: بسط القول والإطناب في شكر نعم الله تعالى؛ ولذا جاء

في مقدمة الرسالة الفاضلية " فإنها بحرٌ للأقلام فيه سبحٌ طويل، ولُطفُ الحقِّ للشكر فيه عبءٌ ثقيل، وبُشرى للخواطر في شرحها مآرب، ويسرى للأسرار في إظهارها مسارب، ولله في إعادة شكره رضا، وللنعمة الراهنة به دوامٌ لا يقال معه هذا مضى..."(القلقشندي، 1916م، ج497/6)، فالناظر في النص المقتبس السابق يجده يفيض بعبارات الشكر، وتمجيد النعمة، وتعظيم المنَّة، وإظهار الرضا، وقد عبر الكاتب عن مدى السرور الذي صحب هذه البشارة وقرنه بالشكر الذي من مظاهره سرور النفس وطيب الخاطر...

ومن ثمار هذه النعمة التي منحها الله تعالى لهم– وعليهم واجب شكرها كما تقدم– وصف ما أعطى من النصر والتمكين (ينظر الحلبي، 1980م، 335)، قول الكاتب مصوّرًا حال الإسلام والمسلين" وقد صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصايرها، واستتبت عقائد أهله على بصائرها، وتقلّص ظلّ رجاء الكافر المبسوط، وصدق اللهُ أهلَ دينه فلما وقع الشرط حصل المشروط..." (القلقشندي، 1916م، ج497/6).

فالكاتب حريصٌ على إظهار ما منح الله تعالى للمسلمين من نصر على الكافرين، فأمور الإسلام في تحسّنٍ من حيث حرية العبادات، وإقامة شرائع الله في أرضه بعد تحريرها، وأصبح الناس في أمنٍ على دينهم بعد تخويف الفرنجة لهم والتضييق عليهم في أمور حياتهم ومعيشتهم، وظل الكاتب يؤكّد أهمية العقيدة في حياة المسلمين، فقد استتبت العقيدة السليمة في حياتهم بعد زعزعتها من قبل أعداء الأمة، ومن منّة الله على عباده المؤمنين دحر أعدائهم، وتقليص دورهم، بل تَعظُم النعمة عندما يزول خطرها بعد فداحته، فنعت الكاتب الفرنجة بالكفرة، وقد وصف خطرهم على المسلمين بالشمولية، فهو كالظلّ الذي يغطي مساحاتٍ واسعة، ولكن من تمام النعمة انحصار هذا الظل، وانقطاع أملهم في بسطه مرة أخرى، وذلك من خلال تعبيره عن صدق وعد الله لعبادة المتقين، فقد صدق الله جنده ما وعدهم به، " فلما وقع الشرط حصل المشروط" (القلقشندي، 1916م، ج497/6) في إشارة واضحة من الكاتب إلى قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾(سورة محمد، آية 7)، فنصر الله لعباده كان مشروطًا بنصرهم لدينه وإظهار شعائره على كل شيء؛ ولذا جاء قول الكاتب: " وكان الدين غريبًا فهو الآن في وطنه، والفوز معروضًا فقد بُذلتْ الأنفس في ثمنه..."(القلقشندي، 1916م، ج497/6) وأطال الكاتب في ذكر النعم التي تحققت بهذا النصر، وأفاض في تعداد المحاسن، إشارة منه بشكر هذه النعم من

خلال تعدادها.

وعودًا على قول الحلبي في تفصيل رسائل التهاني، " وذكر ما منح من الثبات" في تنظيره لهذا الجنس من الرسائل، فالكاتب كي يظهر أهمية النصر يكثر من الكلام عن صبر جنوده وجلدهم وبيان أهمية الصبر في مواطن الجِلاد، " ومن طلب خطيرًا تخاطر، ومن رام صفقةً رابحةً تجاسر، ومن سما لأن يُجلّيَ غمرةً غَامَر؛ وإلا فإنّ القعود يُلين تحت نيوب الأعداء المعاجم فتعضّها، ويُضعف في أيديها مَهْر القوائم فتقُضُّها..."(القلقشندي، 1916م، ج498/6).

فالكاتب يبيّن أهمية الصبر والثبات في مقارعة الأعداء؛ لأن ثمرة الصبر هي النصر والفوز، وتحقيق الآمال، فكل من رام المعالي تجاسر على ركوب الخطر، ولم تثنه عن مرامه الأهوال، في إشارة من الكاتب للخليفة المبشَّر أن النصر هذا لم يكن ليأتي لولا شدة البأس، وخوض المنايا، وركوب الأهوال في مواجهة علوج الفرنجة وحملاتهم المدججة بالعدة والعتاد.

ويعود الكاتب إلى بيان تعليل صبرهم وجَلَدِهم على أعدائهم بقوله" هذا إلى كون القعود لا يقضي فرض الله في الجهاد، ولا يُرعى به حقّ الله في العباد"(القلقشندي، 1916م، ج498/6)، فالحرب في أساسها عقدية بين عقيدتين، والمسلم يحارب لتكون كلمة الله هي العليا؛ لأنه بهذه النية يقيم فرض الجهاد الذي يُرضي الله عنه، ويقيم سلطان الله في أرضه، وقد ألحّ الكاتب كثيرًا على هذه الفكرة في رسالة البشارة ليمنحها قداسة دينية، فالنصر جاء ليعيد للبلاد والعباد حرية إقامة شعائر الله في أرضه التي قد سلبها الكفار فترة طويلة من الزمن، وخيم عليها بظلامه وجهله، فحرمها من نور الإسلام وضيائه، فهي اليوم تعود بعد هذا النصر إلى سابق عهدها من القداسة والطهر.

وصف المعركة:

سرد الكاتب في مقدمة رسالته ألوانًا من عبارات الشكر والثناء، كما عبر عن مدى سروره بهذا الفتح الجليل، وذكر آلاء الله تعالى على عباده في تحقيق النصر، وتثبيت أركان الدين الحنيف في هذه البقعة المحررة من دنس الفرنجة الصليبيين، وعطف بعد ذلك على التذكير بأهمية التمسك بحبل الله المتين كي يفوز المسلم بالنصر المبين، ثم شرع الكاتب في وصف مجريات المعركة وما رافقها من أهوالٍ وصبرٍ على مقارعة الأعداء لكنه من فرحه وسروره أباح بنتيجة النصر والتمكين قبل وصف ما جرى من بذل النفس والنفيس في سبيل تجلي هذا النصر قائلًا: " وكتاب الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدو الذي تشظَّت قناته شفقًا، وطارت فِرَقه فَرَقًا، وفُلَّ سيفُه

فصـار عصًـا، وصُـدِعتْ حَصَـاته وكـان الأكثـرُ عـددًا وحصًا..."(القلقشـندي، 1916م، ج6/499)، فالكاتب من شدة الفرح بالنصر قدم النتيجة على مجريات الأحداث؛ ولأنَّ الرسالة رسالة بِشْرٍ وتهنئة غلب عليها طابع الفرح والسرور؛ قدم النتيجة كي يتلقاها القارئ وهو في بشرى وحبور لا أن يقرأ حتى يوفي على آخرها من أجل الوصول للنتيجة وهي النصر، فقد تصرّف في البناء السردي المقترن بزمن الأحداث ولم يقيّد نفسه بسرد الأحداث كما وقعت فعلًا(ينظر الشوابكة، 2006م، 64)، بل قدم وأخّر لتناسب هذه الأحداث رسالة البشرى أو التهنئة، ثمّ أنشأ الكاتب يصف جيش العدو والحال التي صار إليها من الانهزام والضعف والخور، وكنّى عن ذلك بتشظي الرماح وتفرق الجموع، وتحول السيوف إلى عصي، وتصدّع الجيش على الرغم من الكثرة، وقرن ذلك بقدرة الله تعالى عقوبة لهم على ما ارتكبوه من جرائم بحقّ المسلمين، قائلًا: " فكلّت حَمَلاته وكانت قدرة الله تُصرِّفُ فيه العِنان بالعِيان، عقوبةً من الله ليس لصاحب يديها يدان..."(القلقشندي، 1916م، ج6/499).

واستهلّ الكاتب وصف المعركة باللقاء الأول الذي أمد الله فيه جيش المسلمين بالعون والنجدة، فكسر الصليبيين كسرة عظيمة، وحدثت مقتلة كبيرة في صفوف الأعداء، وأسر الكثير من جنودهم، " وقد كان الخادم لَقِيَهم المرة الأولى فأمدَّه الله بمداركته، وأنجده بملائكته، فكسرهم كسرةً ما بعدها جَبْر، وصرعهم صرعةً لا يعيش معها بمشيئة الله كُفْر، وأسر منهم من أُسرت به السلاسل، وقَتل منهم من فتكت به المناصل"(القلقشندي، 1916م، ج6/499)، واسترسل الكاتب في سرد أخبار التهنئة، ومجّد أحداث يوم النصر، وعدّه من أيام الإسلام الأُول، فضلًا عن كونه يومًا فيه تجلّت نصرة الله تعالى لعباده المؤمنين،" وكان يومًا مشهودًا، وكانت الملائكة شُهودًا، وكان الكفر مفقودًا، والإسلام مولودًا، وجعل الله ضلوع الكفّار لنار جهنم وَقودًا..."(القلقشندي، 1916م، ج6/500).

وبعد هذا الإطراء بذكر النِّعَم وتعدادها، يبدأ الكاتب في وصف ما جرى في المعركة من أمور جِسام، " وأُسِر الملك وبيده أوثق وثائقه، وآكد وصله بالدِّين وعلائقه: وهو صَليب الصَّلبوت، وقائد أهل الجبروت، وما دُهِموا قطُّ بأمرٍ إلا وقام بين دهائمهم يبسط لهم باعه، ويحرِّضهم وكان مدُّ اليدين في هذه الدفعة وَدَاعه،..."(القلقشندي، 1916م، ج6/500).

فعَظُمَتْ البشرى بأسر ملكهم الذي كان لم يألُ جهدًا في خداع المسلمين، والتحريض على قتالهم، فكان أسره من دواعي الخلاص من شرورهم، وهنا يكون أمر البشرى والتهنئة أعظم، فخلاص المسلمين من رؤوس الصليبيين ومحرضيهم أكبر غنيمة تجلّت عنها المعركة، علاوة على أن هذا الملك هو

حامل رمز العقيدة والدين عندهم، فهو الذي يحركهم وفق ما في اعتقادهم من كونه رمزهم الديني الوجودي، فالقضاء على هذا الرمز له أشد الوقع على جنودهم المهزومين والفارين.

ويمضي الكاتب في سرد أحداث النصر، ووصف ذلك اليوم المشهود بنصر المسلمين وخذل أعدائهم قائلًا: " وفي هذا اليوم أُسِرت سَرَاتُهم، وذهبت دُهاتُهم، ولم يُفلتْ معروفٌ إلا القومص–(هرب القومص – لعنه الله – فلم ينجه إلا الهزيمة بحشاشة نفسه متوجِّهًا نحو صور، وتبعه جماعة من المسلمين، ولم يدركوه، وكفى الله المسلمين كيده" ابن واصل، 1957م، ج190/2) –وكان لعنه الله مِلِيًّا يوم الظّفر بالقتال، ويوم الخذلان بالاحتيال، فنجا ولكن كيف، وطار خوفًا من أن يلحقه مِنْسر الرّمح وجناح السيف،..."(القلقشندي، 1916م، ج500/6)، ففي يوم النصر استبسل المسلمون في مواجهة أعدائهم من الصليبيين وأسروا من القادة والجنود، وفي هذا الاقتباس يفصح الكاتب عن شدة عزيمة المسلمين في مكابدة علوج الصليبيين، فهم قوم أشداء في القتال والشجاعة، وقد نصّ أسامة بن منقذ على ذلك جليًّا عند وصفه لهم بقوله:" إذا خبر الإنسان أمور الإفرنج سبّح الله تعالى وقدسه، ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل"(ابن منقذ، 2000م، 151)، فالكاتب وصف من أُسر منهم بالسَّراة والدُّهاة، وهذه صفات الأكفاء في المواجهة والقتال، ومع ذلك كله فقد نصر الله تعالى جنده المسلمين وخذل أعداءه المحتلين، وأدقَّ الكاتب في وصف الأحداث فقد احتال أحد قادتهم وتمكن من الفرار ونجا من القتل أو الأسر، ولكن الكاتب ما فتئ يؤكّد فكرة شجاعتهم يوم القتال، وقوة مجالدتهم ودهائهم في الاحتيال للنجاة بأنفسهم من القتل والأسر.

وأطال الكاتب في وصف شجاعة الصليبيين، وتعجب من شدّتهم وصلابتهم في القتال، وصبرهم في مواطن الجلاد، قائلًا: " لا جرم أنهم تهافَتَ على نارهم فراشُهم، وتجمّع في ظلّ ظلامه خَشاشُهم، فيقاتلون تحت ذلك الصَّليب أصلب قتال وأصدقه، ويرونه ميثاقًا يبنون عليه أشدّ عَقْدٍ وأوثقه، ويعدونه سورًا تحفرُ حوافرُ الخيلِ خندقَه"(القلقشندي، 1916م، ج500/6)، وقد أنصف الكاتب الأعداء عندما وصفهم بمنتهى الشجاعة والاستبسال في قتال المسلمين، " ولا بأس بتهويل أمر العدوِّ ووصف جَمْعِهِ وإقدامه؛ فإنّ في تصغير أمره تحقيرًا للظفر به"(الحلبي، 1980من 335)، وقد علل الكاتب صبرهم وجلدهم بتمسكهم بعقيدتهم الصليبية، فهم يرون في الصليب الذي يعلو راياتهم ميثاقًا دينيًّا لا يجوز التهاون في تركه يسقط تحت حوافر خيل المسلمين، ويعقدون عليه نياتهم، ويَصْدُقُونه في الدفاع عنه، والذود عن حياضه، ولكن لتأييد الله تعالى لعباده المسلمين، ونصرته لهم– بسبب تمسكهم بعقيدتهم الصحيحة– كان النصر والتمكين حليفهم، فانتصار المسلمين جاء من وجهين كما أبرزه

الكاتب، الأمر الأول: من فساد عقيدة الصليبيين على الرغم من شجاعتهم وشدة تمسكهم بها؛ فلذا خذلهم الله تعالى، والأمر الثاني: بسبب حرص المسلمين على تطهير أرضهم من أوضار الصليبيين ونجاستهم، فأصبحت الأرض طاهرة بعد أن كانت دنسة، وعلت مشاعر التوحيد بعد أن كان يعلوها التثليث قائلًا: " وأضحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث، والربّ المعبود الواحد وكان عنده الثالث، فبيوت الشّرك مهدومة، ونيوب الكفر مهتومة، وطوائفه المحامية، مجتمعةً على تسليم البلاد الحامية،... وقد ضُربت عليهم الذلة والمسكنة، وبدّل الله مكان السيئة الحسنة، ونقل بيت عبادته من أيدي أصحاب المشأمة إلى أيدي أصحاب الميمنة"(القلقشندي، 1916م، ج6/499).

فتعليل النصر واضح لكل ذي لُبٍّ، فالحرب حرب عقيدة، فكل فريق يدافع عن مذهبه ومعتقده، ولمّا كانت عقيدة المسلمين أنقى وأطهر كان تأييد الله تعالى وعونه لجنده المجاهدين ظهيرًا، ومدار الحديث في الرسالة يتحدث عن طبيعة الصراع بين المسلمين والصليبيين، فكلاهما ينزع عن عقيدة دينية، ولكن شتان ما بينهما، فعقيدة التثليث مهما تمسّك بها أصحابها لن يصمدوا في وجه من تمسّك بعقيدة التوحيد؛ ومن هنا ألحَّ الكاتب على فكرة نصر الله لعباده الموحدين على الرغم من شدة مراس الصليبيين في المعركة، فقد " أجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح والكُفَّار،... فكم أهلّة سيوف تقارضن الضِّراب بها حتى عادت كالعراجين، وكم أنجم رماحٍ تبادلت الطِّعان حتى صارت كالمطاعين،..."(القلقشندي، 1916م، ج6/499)، فوصف الكاتب المعركة بأسلوب المنتصر الرابح، فحشد في الوصف كل مفردات الفرح والسرور، فكل عبارة في الوصف تنبئ عن كمٍ كبير من معاني البشرى والتهنئة.

وصف ما بعد حطين:

وبعد الانتصار الساحق على الصليبيين في حطين وأسر جلّ ملوكهم، توجّه السلطان وجنوده إلى الساحل الشامي يطوّف بالبلاد التي ما زالت تنتظر أخبار الفتح، وتصغي إلى سماع أنباء الانتصارات (فألْمِمْ بالسواحل فهيَ صُورٌ إليكَ وألْحِقِ الهامَ المتونا. انظر ابن الساعاتي، 1939م، ج2/407)، " وبعد الكسرة مرّ الخادمُ على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية العباسية السوداء صِبْغًا، البيضاء صُنعًا، الخافقة هي وقلوب أعدائها، الغالبة هي وعزائم أوليائها، المستضاء بأنوارها إذا فتح عينها البِشْر، وأشارت بأنامل العَذَبات إلى وجه النصر، فافتتح بلد كذا وكذا وهذه أمصارٌ

ومُدُن،..."(القلقشندي، 1916م، ج500/6)، وجاء في كتاب العماد الأصفهاني (الفتح القُسّي في الفتح القدسي) تعدادًا لأسماء هذه المدن والعمائر التي يطول ذكرها(ينظر الأصفهاني،2004م، 42-64)، كما تضمنت سيرة السلطان صلاح الدين الأيوبي لبهاء الدين بن شداد ذكرًا لهذه المدن والبلدان(ينظر ابن شداد، 2016م، 50-53).

وقد تناولت أحداث معركة حطين وفتح بيت المقدس سنة 583هـ دراسات كثيرة، منها القديمة كما مر بعضها آنفًا، إضافة إلى كتاب الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة المقدسي(ينظر أبا شامة، 1997م، ج275/3-330)، ومنها الحديثة كدراستي الدكتور عبد الجليل عبد المهدي الموسومتين بـ(بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، وبيت المقدس في شعر الحروب الصليبية)، حيث فصّل الحديث في هاتين الدراستين عمّا قيل في هذا الفتح من شعر ونثر (ينظر عبد المهدي، 1989م،65-95، كما ينظر دراسته الثانية، 1989م، 46-62)، وقد ذكرتُ هذه الدراسات لمساسها بشكل مباشر بموضوع دراستي، علمًا أن هذا الدراسة تخصّ الرسالة الفاضلية التي كان موضوعها الأساس البشرى بالفتح والتهنئة بالنصر، فكاتب الرسالة بشّر بالانتصار في حطين وما بعدها من فتوح شملت معظم مدن الساحل الشامي.

فتح بيت المقدس:

وقد أطال الكاتب الوصف في تلك البشرى عن الأحداث التي سبقت فتح بيت المقدس، وفصَّل القول كذلك في العوائق التي أبطأت من السير في فتحه، قائلًا: " ولمّا لم يبقَ إلا القدس وقد اجتمع إليها كل شريد منهم وطريد، واعتصم بمنعتها كلّ قريب منهم وبعيد، وظنّوا أنهم من الله مانعتهم، وأنّ كنيستها إلى الله شافعتهم، فلمّا نازلها الخادم رأى بلدًا كبلاد، وجمعًا كيوم التَّناد، وعزائمَ قد تألَّفت وتألّبت على الموت فنزلت بعرصته، وهان عليها مورد السيف أن تموت بغُصَّته، فزاول البلد من جانب فإذا أوديةٌ عميقة، ولججٌ وعْرةٌ وغريقة،..."(القلقشندي، 1916م، ج501/6)، فبقي الكاتب يراوح مكانه من وصف شجاعة الصليبيين، وقوة مراسهم في مواجهة المسلمين، فقد تجمعوا في بيت المقدس ليحموا بيضتها من جيش المسلمين، وقد كثرت أخلاطهم وأجناسهم، وبرزوا لقتال المسلمين لا يثنيهم الخوف من الموت عن ورود حياض الخطر فقد أُلِفوا الحروب والشدائد، فهم أصحاب عزائم شديدة في مواطن الجِلاد؛ ولذا فكّر القائد المسلم في طريقة أخرى يتجنب فيها هذه الجموع الهائجة، فحاول تغيير وجهته، بسلوك طريق آخر يحاصر فيه بيت المقدس لكنه وجد المكان وعرًا، وكأنّ الكاتب يزيد في تعقيد

المشهد، " وسورٌ قد انعطف عطف السوار، وأبرجةٌ قد نزلت مكان الواسطة من عقد الدار، فعدل إلى جهةٍ أخرى كان للمطامع عليها معرَّج، وللخيل فيها متولَّج، فنزل عليها... وقابلها ثم قاتلها، ونزلها ثم نازلها، وبرز إليها ثم بارزها، وحاجزها ثم ناجزها"(القلقشندي، 1916م، ج501/6)، وظل الكاتب يرسم مشاهد محاولات القائد لفتح بيت المقدس، فقد أخذ بكل أسباب النصر من تغيير المكان والنزول على مكان أكثر مناسبة لمنازلة من فيه من الصليبيين، فضيق الخناق عليهم بالقتال والمنازلة والمبارزة، حتى أيقنوا بأفول نجمهم، وزوال ملكهم فيها؛ فشرعوا في المراسلات والمبادرات، " وفي الحال خرج طاغية كُفرهم وزمام أمرهم ابن بارزان سائلًا أن يؤخذ البلد بالسِّلم لا بالعَنوة، وبالأمان لا بالسَّطوة"(القلقشندي، 1916م، ج502/6).

فقد عرض القائد الصليبي أن يتم الاتفاق على تسليم بيت المقدس بالسِّلم لا بالقوة مقابل فدية يؤديها للمسلمين، وإلا فإنّهم سيقتلون ما بأيديهم من أسرى المسلمين وهم ألوف، وبعد ذلك سيقتلون زوجاتهم وأبناءهم ويخرجون لقتال المسلمين " وقال: ههنا أسارى مؤمنون يتجاوزون الألوف وقد تعاقد الفرنج على أنّهم إن هُجمت عليهم الدار، وحمَّلت الحربُ على ظهورهم الأوزار، بُدئ بهم فعُجِّلوا، وثُنِّي بنساء الفرنج وأطفالهم فقُتِّلوا، ثم استقتلوا بعد ذلك فلم يُقتل خصم إلا بعد أن ينتصف، ولم يُسلَّ سيفٌ من يدٍ إلا بعد أن تتقطع أو ينقصف"(القلقشندي، 1916م، ج502/6)، وفي هذا العرض خطورة كبيرة على أرواح أسرى المسلمين في بيت المقدس، كما أن قتال الفرنجة بعد أن يقتلوا نساءهم وأبناءهم لن يكون يسيرًا، فهم سيقابلون المسلمين بلا هوادة بعد أن خسروا أولادهم وأهلهم؛ لذا أخذ القائد المسلم بمشورة بعض أمرائه بالأخذ بالفدية؛ خشية قتل الفرنجة لأسرى المسلمين علاوة على كثرة الجراح في الجيش الإسلامي، " وأشار الأمراء بالأخذ بالميسور، من البلد المأسور؛ فإنه إن أُخذ حربًا فلا بدّ أن تقتحم الرجال الأنجاد،... وكانت الجراح في العساكر قد تقدّم منها ما اعتقل الفَتَكات، وإعتاق الحَرَكات، فقُبِل منهم المبذول عن يد وهم صاغرون، وانصرف أهل الحرب عن قدرة وهم ظاهرون،..."(القلقشندي، 1916م، ج502/6)، فنصت هذه الرسالة على أن صلاح الدين قبل منهم الفدية خشية غدرهم بأسرى المسلمين، وتخريبهم للأماكن المقدسة كالصخرة المشرفة، إضافة إلى إتلاف الأموال والعمائر، وقد أشار عليه وزراؤه الذين اجتمعوا في مجلس المشورة التي عقدها بأخذ الفدية والقَبول بمنحهم الأمان لقاء خروجهم من المدينة، فقد ذكر العماد الأصفهاني (وهو شاهد العصر ومؤرخه) أدق التفاصيل عن هذه الأحداث في كتابه الفتح القسيّ، " وإنا نحرق الدور ونخرّب القبّة، ونترك عليكم في سبينا السُّبَّة، ونقلع

الصخرة، ونوجدكم عليها الحسرة، ونقتل كلّ ما عندنا من أُسارى المسلمين وهم أُلوف" (الأصفهاني، 2004م، 71).

فوافق صلاح الدين بناءً على مشورة وزرائه على أخذ الفدية مقابل الخروج من بيت المقدس، وقد وصف العماد الأصفهاني يوم خروجهم من المدينة، قائلًا: " وسلموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعة، وردّوه بالرَّغم ردَّ الغصب لا الوديعة،..."(الأصفهاني،2004م، 72)، وقد أفاض الأصفهاني في وصف خروجهم، فالذين دفعوا فديتهم خرجوا من الأبواب منكسرين تعلوهم الحسرة والمذلة، بينما الذين لم يدفعوا الفدية خرجوا كما وصفهم، " فمنهم من أدلى من السور بالحبال، ومنهم من حُمِل مخفيًا في الرِّحال، ومنهم من غُيِّرت لبسته فخرج بزي الجند، ومنهم من وقعت فيه شفاعة مطاعة لم تُقابَل بالردِّ"(الأصفهاني،2004م، 72)، وبعد إجلاء الصليبيين عن بيت المقدس شرع المسلمون في تفقد الأماكن المقدسة، " وأوزع الخادم بردِّ الأقصى إلى عهده المعهود، وأقام له من الأئمة من يوفِّيه ورده المورود، وأُقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شهر شعبان، فكانت السماوات يتقطرن للسجوم لا للوجوم، والكواكب ينتثرن للطرب لا للرجوم،..."(القلقشندي، 1916م، ج503/6)، وأكثر الكاتب في هذا المقام من إظهار عزة المسلمين، فقد عادت كلمة التوحيد تصدع عالية في المناسك والمشاعر الإسلامية، بعد أن أفل نجم التثليث " أُقيمت الخمس وكان التثليث يُقعدها، وجهرت الألسن بالله أكبر وكان سحر الكفر يعقدها"(القلقشندي، 1916م، ج503/6)، ففي هذه العبارات المقتبسة فرح عظيم بعودة روح الإسلام إلى جسده، ودبّت الحياة مرة أخرى في أماكنه المقدسة، بعد أن خيّم عليها الشِّرْكُ بظلامه، وقد حُفِظَ نصُّ الخطبة الأولى التي أقيمت في المسجد الأقصى بعد تحريره(ينظر أبا شامة، 1997م، ج384/3).

وفي كل الأحوال أجاد الكاتب في نقل مشاعره التي هي مشاعر عامة المسلمين في زمانه بفرحه بفتح بيت المقدس وجُلّ البلاد المفتوحة، فأظهر كل ما يمكن أن يعبّر عن مدى السرور والابتهاج، فالبلاد أصبحت طاهرة بعد نجاستها، والأماكن المقدسة علا فيها صوت التوحيد بعد أن لفّها رواق الشرك والتثليث، ولم يكتف الكاتب بفرح أهل الأرض بل جعل الكواكب والنجوم تشاركها الفرحة والطرب، فقد تبدلت الحال، وسُرَّت النفوس وزال عنها الضنك والعبوس، فكل من يقرأ هذه الرسالة يشعر بما فيها من التهاني والبشرى.

الدراسة الفنية للرسالة:

يُعدُّ القاضي الفاضل– وهو كاتب الرسالة– رأس مدرسة النثر في عصره، وقد كان يجري على

نهج ابن العميد الذي كان يعتني بلغة الكلام، ويجوّد لفظه، ويكثر من المحسنات البديعية في رسائله النثرية حتى قيل فيه (بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد)، " فقد كان لابن العميد أشياع يقولون بإمامته في النثر "(مبارك، 2013م، 555)، ومهما يكن فالقاضي الفاضل زاد على ابن العميد في التلوين البديعي والبلاغي بشكل عام، فقد اتسمت رسائله بأفانين البلاغة، وقد كثر معجبوه من أبناء عصره، وممّن تتلمذ على فنّه من الكتاب المترسلين، فالعماد الأصفهاني يقول فيه: " ربّ القلم والبيان، واللسن واللسان، والقريحة الوقّادة، والبصيرة النقّادة،...، فهو كالشريعة المحمدية التي نسخت الشرائع ورسَّخت بها الصنائع، يخترع الأفكار، ويفترع الأبكار،..."(الأصفهاني، 2005م، ج1/35–36)، كما وصفه ابن حجة الحموي وهو أحد من تتلمذ على ترسله بقوله: " انتهى ما تخيرته ووعدت بإيراده في باب التورية من كلام هذه العصابة التي مشت تحت العصائب الفاضلية، وصار لها من بعده في باب التورية أعظم رويّة، وقدّمت إمامهم الذي صلّت الجماعة خلفه، وهو القاضي الفاضل"(الحموي، 2005م، ج3/288)، ويطول الحديث إذا تتبعنا من أثنى عليه في تقدمه في هذا الباب، ولكن الهدف هنا دراسة هذه الرسالة فنيًّا وفق وجهة نظر نقاد تلك الحقبة، أمثال ابن الأثير، والشهاب الحلبي، وصلاح الدين الصفدي وغيرهم.

بناء الرسالة:

يعد بناء الرسالة من الأمور التي أولاها الكُتَّاب عناية فائقة، فقد اهتمّ القاضي الفاضل ببناء هذه الرسالة، على عادة أهل زمانه في بناء رسائلهم على هيئات مخصوصة، من البدء، والعرض والخواتيم، وكما أسلفنا فالكاتب يعد صاحب مدرسة في النثر في زمانه؛ ولهذا جاءت رسالته هذه على أتمّ بناء من حيثُ الالتزامُ بالبدايات والعرض والخواتيم، وقد نصّ القلقشندي على موضوع البداية والخواتيم صراحة، وخصص مقالة كاملة عن هذا الموضوع تتحدث عن الفواتح والخواتم واللواحق(القلقشندي، 1916م، ج6/217)، ففي باب الفواتح وهي البدء بذكر البسملة والحمد، قال في البسملة: " فيجب تقديمها في أول الكلام المقصود، من مكاتبة أو ولاية أو منشور إقطاع أو غير ذلك؛ تبرّكًا بالابتداء بها، وتيمّنًا بذكرها"(القلقشندي، 1916م، ج6/222)، ومن المؤسف اختفاء البسملة من فواتح جلّ الرسائل؛ ولعلّ ذلك عائد إلى عبث النساخ أو كون البسملة ليست من جسم الرسالة الفعلي، بل تنتمي للمقدمة التي تحوي خطبة الرسالة الديوانية وما يضاف إليها

ممّا يعرف بالرسوم الديوانية الأساسية كالطغراء وما شابهها مما لا ينتمي لجسم الرسالة الأساسي، أما الحمدلة فهي من عناصر الفواتح الأساسية فقد ذكر القلقشندي ذلك بقوله: " لمّا كان الحمد مطلوبًا في أوائل الأمور طلبًا للتيمّن والتبرّك، عملًا بما رواه الرواة لحديث البسملة المتقدم...اصطلح الكُتّاب على الابتداء به في الكثير مما يكتبونه من المكاتبات والولايات وغيرهما مما له شأنٌ وبالٌ"(القلقشندي، 1916م، ج224/6)، وقد اختفت الحمدلة في هذه الرسالة، وأُرجح سبب الاختفاء لحذف كل المقدمة التي تشتمل على البسملة، والحمدلة، والصلاة على النبي–عليه الصلاة والسلام – وعبارة أما بعد، ويعود سبب الحذف في المقام الأول لعدم حاجة النسّاخ للاحتفاظ بها كونها أمر اعتيادي في نظرهم لا يضيف شيئًا لبنية الرسالة الأساسي، أو ربما كانت هذه المقدمات في أوراق خاصّة لا تلحق بمحتوى الرسالة الأساسي، وأيًّا كان السبب فإن هذه الرسائل لا تخلو عند وضعها من هذه الفواتح.

وعادة ما تكون البدايات بعد ذكر البسملة والحمدلة بالدعاء للمكتوب إليه كما نصّ على ذلك القلقشندي في دستوره: " ويكون الدعاء للديوان بما فيه من معنى دوام العزّ والسلطان، وبسط الظِّلِّ وما أشبه ذلك" فقد بدأ الفاضل رسالته بقوله: "أدام الله أيام الديوان العزيز النبويّ الناصريّ، ولا زال مظفّر الجِدِّ بكلِّ جاحد، غنيّ التوفيق عن رأي كلّ رائد، موقوف المساعي على اقتناء مُطْلَقات المحامد،..."(القلقشندي، 1916م، ج496/6–497).

فقد التزم الفاضل في البداية بما هو منصوص عليه في دساتير الكتابة، لا بل وضع القاضي للدساتير الكتابية أمثلةً حيةً على ما جاء فيها، فقد كثُر التمثيل من رسائل القاضي الفاضل على أبواب صبح الأعشا للقلقشندي، فقد أورد القلقشندي هذه الرسالة في دستوره الكتابي تمثيلًا على أسلوب المكاتبات بالدعاء للديوان العزيز.

أما ما يخص مضمون الرسالة وهو الإخبار بالتهنئة والبشرى بفتوح بيت المقدس والانتصار على الصليبيين، فقد أورد القاضي الفاضل تقريرًا مفصّلًا عن الأحداث ومجريات الأمور، وسير المعارك، وأخبار الجيوش والقادة، وأحوال البلاد المفتوحة قبل النصر وبعد التحرير، وقد أفاض في ذلك وفق ما اقتضت الحاجة كما قال الحلبي في دستوره حسن التوسل: " وإذا كتب التهاني بالفتوح فليس إلا بسط الكلام، والإطناب في شكر نعم الله..."(الحلبي، 1980م، 335)، وقد تمّ تحليل هذا الجزء من الرسالة في الدراسة الموضوعية.

وأمّا عن الحديث على الخواتيم، فقد نص القلقشندي على ذلك بقوله: " اعلم أنه يُستحَب

للكاتب عند انتهاء ما يكتبه: من مكاتبةٍ أو ولايةٍ أو غيرهما أن يكتب (إن شاء الله تعالى) تبرُّكًا ورغبةً في نجاح مقصد الكتاب"(القلقشندي، 1916م، ج232/6)، وقد ذكر القلقشندي أن تكتب هذه العبارة أسفل الرسالة في وسط السطر، بينها وبين آخر المكتوب ما يماثل سطرين أو دونه(ينظر القلقشندي، 1916م، ج233/6)، وقد اختفت كذلك هذه اللاحقة من هذه الرسالة، وقد يكون حذفها يماثل علّة حذف الفواتح، على الرغم من أهميتها في موقعها من الرسالة، وإيمانهم بمكانتها في التيمّن والبركة في إتمام مقاصدهم في هذه الرسائل.

وقد أجمل القاضي الفاضل رسالته بما يشي بالخلاصة قائلًا: " وهذه البشائر لها تفاصيلُ لا تكادُ من غير الألسنة تتشخّص، ولا بما سوى المشافهة تتلخّص؛ فلذلك نقّدنا لسانًا شارحًا، ينشُر الخير على سياقته، ويعرض جيش المَسَرّة من طليعته إلى ساقته"(ينظر القلقشندي، 1916م، ج217/6)، ولا يمكن قبول هذه الفقرة خاتمة نهائية ينتهي بها الكلام، بل لا بد من عبارات محددة تنتهي بها الرسالة كالمشيئة، والصلاة على النبي– صلى الله عليه وسلم –، أو الحسبلة، إضافة إلى تدوين التاريخ إن دعت الحاجة إليه(ينظر القلقشندي، 1916م، ج232/6–270)، وجاء في التعريف العمري قوله: " ويختم الكتاب، تارة بالدعاء وتارة بـ(طالع أو أنهى) أو غيرهما مما فيه معنى الإنهاء"(العمري، 2024م، 6)، وهذه رسوم ألفها كتّاب ذلك الزمان، واعتادوا على تطبيقها في رسائلهم.

ومهما يكن من أمر فإن الرسالة التي بين أيدينا تمثل الطِّراز المعتاد في تلك الفترة من الترسُّل العربي، فلا شكّ في أن صاحبها قد أخذ بكل ما يمكن أن يجعلها في المكانة المرموقة من هذا الفنّ خاصّة وهي موجّهة إلى الديوان العزيز، أي إلى الخليفة، والمكاتبات التي توجّه لهذا الديوان هي أعلى أصناف المكاتبات على الإطلاق.

اللغة والأسلوب:

اللغة هي الأداة التي من خلالها يستطيع الإنسان أن يوصل رسالته إلى متلقيه؛ ولهذا فإنّ الكتّاب يعتنون أيّما عناية بصياغتهم اللغوية لنصوصهم الأدبية، فالقاضي الفاضل وهو صاحب هذه الصناعة لا يخفى عليه أمر الاهتمام بلغة رسائله، واختيار ألفاظه ومعانيه، فهذا معاصره وناقد عصره ضياء الدين بن الأثير يقول في هذا المقام: " اعلم أنّه يحتاج صاحب هذه الصناعة

في تأليفه إلى ثلاثة أشياء: الأوّل منها اختيار الألفاظ المفردة، وحكم ذلك حكم اللآلئ المبدَّدة، فإنّها تتخير وتنتقى قبل النظم، الثاني نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها؛ لئلا يجيء الكلام قلقًا نافرًا عن مواضعه، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها، الثالث الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه..."(ابن الأثير، 1939م، ج142/1)، ومن يطالع هذه الرسالة يجد أن الكاتب قد سلك فيها مسلك اختيار الألفاظ المعبرة عن الحال التي تعبّر عنها الرسالة، ألا وهي حالة البشرى والفرح، فقد اختار الكاتب ألفاظه بعناية، فكل لفظة في الرسالة تشي بما بعدها في الجملة، إضافة إلى طبيعة الموضوع المطروق وهو البشرى بالتهاني بفتح بيت المقدس وما حوله من ديار، فقد اعتنى الكاتب بصياغة ألفاظه وتنسيقها بما يليق بمقام الخليفة العباسي، فالخطاب في هذه الرسالة موجّهٌ في المقام الأوّل إلى الخليفة، فجاءت لغة الرسالة واضحة وجزلة في الوقت نفسه، فحيثما أجلت نظرك فيها تجد جزالة الألفاظ ووضوح معانيها، مع ما فيها من بلاغة وترسّل كبير، فالكاتب يعتلي صهوة الكتابة في زمنه، فللمتلقي أن يتأمل هذا النص المقتبس من الرسالة " ولمّا قدِم الدينُ عليها عرف منها سويداء قلبه، وهنّأ كفؤها الحجر الأسود ببتِّ عِصمتها من الكافر بحربه، وكان الخادم لا يسعى سعيه إلا لهذه العُظمى، ولا يُقاسي تلك البؤسى إلا رجاء هذه النُّعمى، ولا يناجز من استمطله في حربه، ولا يعاتب بأطراف القنا من تمادى في عَتبه، إلا لتكون الكلمةُ مجموعة، والدعوةُ إلى سامعها مرفوعة، فتكون كلمةُ الله هي العليا..."(القلقشندي، 1916م، ج498/6)، فكل عبارة في هذه الفقرة المقتبسة بل كل لفظة لا تحتاج من المتلقي كثير تأمُّل حتى يصل إلى مقصود الكاتب، فالألفاظ واضحة المعنى، والعبارات متناسقة في صياغتها، ولا يشعر القارئ بثقل الأسلوب أو صعوبته، بل يستميله أسلوب الكاتب البلاغي المعتمد على شعرية الربط بين العبارة النثرية والعبارة الشعرية، كقوله: (ولا يناجز من استمطله في حربه) و(ولا يعاتب بأطراف القنا من تمادى في عتبه) فمثل هذه العبارات على وضوح معناها وسلاسة صياغتها تكاد أن تكون من السهل الممتنع.

ومثل هذه الرسائل الأدبية التي هي مع أدبيتها تمثل رسائل رسمية فإن الكتّاب ينهجون فيها مسلكًا يجمع بين رسميتها وأدبيتها، فالحلبي يقول: " ومما يتعين على الكاتب استعماله والمحافظة عليه والتمسّك به، وإعطاء كل مقام حقّه، فإذا كتب في أوقات الحروب إلى نواب المَلِك عنه وإلى مقدّمي الجيوش والسرايا فليتوخَّ الإيجاز، والألفاظ البليغة، الدالة على القصد من غير تطويل ولا بسط يُضيع المقصد،..."(الحلبي، 1980م، 331)، فالقصدية واضحة تمامًا عند النقّاد المنظرين

لتلك الفترة، فالتخصصية في طبيعة الرسائل واضحة المعالم لديهم، فكل رسالة أدبية رسمية لها طبيعة خاصة في أسلوبها ولغتها، لغة تناسب المقام الذي وجِّهت له، وأسلوب يلائم مكانة المُخاطَب؛ فلما كان المُخاطَبُ بالرسالة خليفة المسلمين جاءت لغة الرسالة رصينة واضحة لا لبس فيها، ذات ألفاظ جزلة وعبارات بليغة دالّة على المعاني، لا قصور في المدلول ولا خلل في المعنى، والكاتب في هذه الرسالة يعي تمامًا أنه يخاطب مقامًا عاليًا؛ ولذا صرف جهده كلّه في تنميق عباراته، واختيار ألفاظه، وكما جاء في قول ابن الأثير الذي شبه الألفاظ باللآلئ المنثورة التي تحتاج إلى خبير في نظمها، كما تحتاج إلى خبير في وضعها في مكانها الصحيح بعد نظمها عقدًا، فمن الجواهر ما يوضع إكليلًا على الرأس، ومنها ما يكون قلادة في العنق، وأخرى يوضع شَنَفًا في الأذن، فلكلِّ مكانٍ هنا هيئةٌ يزيد فيها الجوهر حُسنًا(ابن الأثير، 1939م، ج142/1).

الأثر البديعي في الرسالة:

يعد القاضي الفاضل من أجلّ كتاب الرسائل في زمانه، فقد عُرِف عنه قوة بلاغته في كتابة الرسائل، حتى عُدَّ رأس مدرسة في النثر العربي، وقد أورد ابن الأثير قصة تَعلُّم القاضي الفاضل لأصول فنّ الكتابة(ينظر ابن الأثير، 2004م، 179-181)، وحفظِه للقرآن الكريم، ولديوان الحماسة لأبي تمام، وحلّ أشعار الحماسة، وعَدَّ ابن الأثير ذلك نبراسًا لمن يريد أن يسلك هذا الطريق قائلًا: " واعلم أيها الطالب لهذا الفنِّ أنّ هذه الحكاية تحقّق عندك ما أشرت إليك به"(ابن الأثير، 2004م، 179-181)، فظاهر الإشادة به واضحة في كلام ابن الأثير-وهو ناقد العصر- فسبيل الكُتَّاب في ذلك العصر هو الاعتماد المباشر على أساليب البلاغة المستخلصة من نظم فحول الشعراء، فمن ظاهر عبارة (حلّ شعر ديوان الحماسة) نفهم مدى اعتمادهم على صور الشعراء الفحول وأساليبهم، فديوان الحماسة اختيارات لمقطوعات شعرية تنبض بالحكمة ودقّة الشاعرية، فأبو تمام " شاعرٌ ذوّاقة مرهف العقل والحسّ، كان يعرف كيف يستخرج من القصيدة أروع ما فيها"(إسماعيل، د.ت، 93)؛ ولذا جاءت مقطوعاته مثلًا أعلى في الذوق العربي القديم، فكان حفظُ الحماسةِ وحلُّ أبياتِها منهجًا له في تعلُّم فنّ الترسّل، فهذا ابن الأثير يخبر عن نفسه بحفظ دواوين بعض الفحول قائلًا: "وكنتُ حفظتُ في الأشعار القديمة والمحدثة ما لا أحصيه كثرةً، ثم اقتصرتُ بعد ذلك كلّه على شعر الطائيينِ: حبيب بن أوس، وأبي عبادة البحتري، وشعر أبي

الطيب المتنبي، فحفظت هذه الدواوين الثلاثة، وكنت أُكررُ عليها بالدرس مدّة سنين؛ حتى تمكنّت من صوغ المعاني، وصار الإدمان لي خُلُقًا وطبعًا"(ينظر ابن الأثير، 2004م،181)، وعلّة حفظ هذه الأشعار هو تمرين الذهن على صوغها نثرًا عندما يحتاج الكاتب " لينفق منها وقت الاحتياج إليها"(الحلبي، 1980م، 325)، وقد نصّ ابن الأثير صراحة على ذلك بقوله: " فإذا فعل ذلك فليدمن في حلّ الأبيات الشعرية زمانًا طويلًا حتى تحصل له المَلَكَةُ؛ ليكون إذا كتب كتابًا، أو خطب خُطبةً جاءته المعاني سانحةً وبارحةً، وواتته السرعةُ فيما ينشِئُهُ من ذلك، ولا يحول بينه وبينه الإبطاء، وهذا شيءُ قد حصل لي بالتجربة"(ابن الأثير، 2004م، 179)، فأكثرَ النقّادُ من حثِّ الكتّاب على حفظ القرآن الكريم والآثار النبوية الشريفة، وحفظ الشعر، والأقوال المأثورة، والأمثال؛ لتكون معينًا لهم في الكتابة وصوغ الأفكار، فهذه المحفوظات تشكّل للكاتب ثقافة ثرّة في تنوّع معارفه، فكثرة هذه المصادر تصقل موهبته الكتابية.

وعند تصفّح الرسالة الفاضلية يتضح المقال السابق، فهي تموج بالمعاني والصور التي تعود في مصدرها إلى القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وأشعار الفحول ومأثورات الأقوال والأمثال؛ إلا أنه من العسير على المتلقي أن يُرجِعَ هذه الصور إلى المصادر التي أخفاها الكاتب في خيوط نسجه المتماسك، وتلك حيلة نصّ ابن الأثير عليها قائلًا: " فباعثي إذًا على حفظ الأشعار دون الكلام المنثور كثرة الشعر واستغراقه للمعاني؛ ولأنّ الأخذ منه أستر وأخفى"(ابن الأثير، 2004م، 173-174)، فهذا هو المعوّل عليه أن تنفق من هذه الصور والمعاني التي خُزِّنت في الذاكرة دون حاجة إلى ذكر ما يشير إلى المصادر الأساسية، فحلّ الشعر بغير لفظه أخفى لأمره، فإنه لا يُعلم من أين أخذه الكاتب(ينظر ابن الأثير، 2004م، 311)، وهذا ما نهجه القاضي الفاضل في الرسالة، فالمتلقي لا يكاد يظفر بشيء في هذا المقام يدل على أصل بيت شعر فيها مع أن المعاني واضحة وتشي بمعانٍ عامة في شعر الحكمة، علاوة على كونه مولعًا بالتشخيص، وإظهار ما في فكره من أنماط التصوير.

وما جرى على الشعر جرى على النصوص الدينية من الآيات الحكيمة والآثار النبوية الشريفة، فالحلُّ في القرآن الكريم يقع في ضربين: " أحدهما: أن يُؤخذَ بعضُ الآية فيُجعَلَ أوّلًا لكلامٍ، أو آخِرًا، والآخرُ: أن يُؤخَذَ معنى الآية"(ابن الأثير، 2004م، 340)، وعند تأمل الرسالة الفاضلية تجد أن كاتبها قد أخذ في المقام الأوّل بمعنى الآيات دون ألفاظها وبنيتها، فالمتلقي يدرك معاني الآيات الكريمة في ثنايا النص دون معاينتها في متن الرسالة، وذكر الحلبي ذلك بقوله: "أن يضمّن

الكلام شيئًا من القرآن الكريم، والحديث ولا ينبّه عليه للعلم به"(الحلبي، 1980م، 323)، فقد أكثر الكاتب من العبارات الدالة على شرك الفرنجة واعتقاده بالتثليث دون أن يذكر الآيات الكريمة التي جاءت في عقيدة النصارى وهي عقيدة التثليث، " وأُقيمت الخمس وكان التثليث يقعدها"(القلقشندي، 1916م، ج503/6)، في إشارةٍ واضحة إلى قوله تعالى: ﴿**لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[سورة المائدة، آية 73]، وهناك أمثلة كذلك على أخذه لبعض الآيات الكريمة مبقيًّا على بعض مفرداتها وتراكيبها تيمّنًا بنصوص القرآن الكريم، كقول الكاتب: " قال عنده الكافر: يا ليتني كنت ترابًا، فحينئذ يئس الكفار من أصحاب الدور، كما يئس الكفار من أصحاب القبور"(القلقشندي، 1916م، ج502/6)، فهنا نقل الكاتب بعض الآيات بنصها، وفي ذلك تبرّكٌ بالقرآن الكريم، وشرفٌ عظيم، كما فيه إقامةٌ للحجّة، وقطعٌ للنزاع، وانتصارٌ على الخصوم(ينظر الحلبي، 1980م، 75)، وحول موضوع شواهد القاضي الفاضل واقتباساته يمكن النظر في أنواع التناص في رسائل القاضي الفاضل في البحث الموسوم بـ(الشاهد في رسائل القاضي الفاضل (ت ٥٩٦ هـ) من خلال (فصوص الفصول وعقود العقول) لابن سناء الملك (ت ٦٠٨ هـ)"(ينظر الدوخي،2015م، 189-234)، والرسالة الفاضلية تقوم في مجملها على فكرة الحرب العقدية التي تعلي من شأن انتصارات المسلمين على الفرنجة؛ ولذلك أكثر الكاتب من النصوص المقدسة التي تزيد النصَّ قداسةً، وتبثّ الهيبة في متلقيه، وتشحن النفوس في مواجهة أعداء الأمة، فالنصوص الدينية تزيد من تعلّق العبد بالخالق، وتقلّل من تعلّقه بالحياة الدنيا وزينتها.

أما ما يتعلّق بالمحسنات المعنوية واللفظية فقد حفل بها عصر القاضي الفاضل أيما احتفال، فالرسالة مسجوعة من أولها إلى آخرها، وهذه الحلية اللفظية كانت من أهمّ المحسنات اللفظية في رسائلهم، لأنها تقرّب فن الترسّل من الفنّ الشعري، وقد ذكر ذلك ابن خلدون جليًّا في مقدمته: " وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الأسجاع، والتزام التقفية، وتقديم النسيب بين يدي الأغراض، وصار هذا المنثور إذا تأمّلته من باب الشعر وفنّه، ولم يفترقا إلا في الوزن"(ابن خلدون، 2004م، ج393/2)، وفصّل ابن الأثير القول في حلية الأسجاع وعدّه من الحلى التي تميز الكلام المنثور قائلًا: " ولذلك ثبت أن المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع"(ينظر ابن الأثير، 1939م، ج198/1)، واشترط لحسنه وصحته أن تكون السجعة

الأولى مستقلة في المعنى عن السجعة الثانية، ومعناها غير معنى أختها، وإلا كان هذا التطويل بعينه (ينظر ابن الأثير، 1939م، ج198/1).

وجاءت أسجاع الرسالة الفاضلية من النوع الذي أثنى عليه ابن الأثير، فكلّ سجعةٍ تعطي معنىً خاصًّا، مستقلًا عن السابق، فالمتصفح للرسالة يجد أسجاعها حلوة حادّة طنّانة رنانة، لا غثّة ولا باردة (ينظر ابن الأثير، 1939م، ج196/1)، وعند التمثيل من الرسالة يدرك المتلقي مهارة الكاتب في إتقان هذه الحلية، فمن الأمثلة على ذلك: "وجاء أمر الله وأُنُوف أهل الشرك راغمة، فأدلجت السيوف إلى الآجال وهي نائمة"(القلقشندي، 1916م، ج497/6)، وكذلك " ومن طلب خطيرًا خاطر، ومن رام صفقةً رابحةً تجاسر"(القلقشندي، 1916م، ج498/6). وبالمجمل جاءت أسجاعه في هذه الرسالة عفوية بعيدة عن التصنّع والتكلّف.

كما حفلت الرسالة بحلية الجناس على أنواعه التام والناقص، ويهمنا هنا الغرض من إيراد هذه الحلية وهو تزيين الألفاظ والتراكيب، فمنه قوله: " والشرق يهتدي بأنواره، بل إن أبدى نورًا من ذاته هتف به الغرب بأن واره"(القلقشندي، 1916م، ج498/6)، ولا يخفى ما في هذا النوع من الجناس من البحث عن التورية وهي محسِّنٌ معنوي، " وَقَدْ حَافَظَ عَلَى التَّورِيَةِ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ، وَسَلَكَ سَبِيلَهَا جَمَاعَةٌ مِنَ النَّاظِمِينَ وَالنَّاثِرِينَ، وَأَظُنُّ القَاضِيَ الفَاضِلَ – رَحِمَهُ اللهُ – مِمَّنْ ذَلَّلَ صِعَابَهَا، وَمَهَّدَ بالأَمْنِ مَخَاوِفَهَا وَشِعَابَهَا، وَأَنْزَلَ النَّاسَ سَاحَاتِهَا وَرِحَابَهَا، حَتَّى ارْتَشَفَ هَذِهِ السُّلافَةَ أَهْلُ عَصْرِهِ، وَأَصْحَابُهُ الَّذِينَ نَزَلُوا رُبُوعَ مِصْرِهِ، وَخَفَقَتْ رِيَاحُهُمْ بالإخلاص في نَصْرِهِ"(الصفدي، 2014م، 150)، وقد شهد القدماء له بتقدمه في توظيف التورية في أدبه(الحموي، 2005م، ج288/3)، ومن الأمثلة وهي كثيرة على جناساته، " وكانت قدرة الله تصرِّف فيه العِنان بالعِيان"(القلقشندي، 1916م، ج499/6)، " فيقاتلون تحت ذلك الصّليبِ أصْلَبَ قتالٍ وأَصْدَقَهُ"(القلقشندي، 1916م، ج500/6). والرسالة حافلة بهذه الحلية، ونكتفي بما ذكرنا من الأمثلة، كما اعتنى الكاتب بالحُلى المعنوية كالطباق والمقابلة، من ذلك قوله في الرسالة: " وبعد الكسرة مرّ الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية العباسية السوداء صِبغًا، البيضاء صُنعًا" وكذلك: " مستيقظ النصر والسيف في جفنه **راقد، وارد** الجود والسحاب على الأرض غير وارد، متعدّد مساعي الفضل وإن كان لا يلقى إلا بشكرٍ واحد"(القلقشندي، 1916م، ج497/6)، فلا يخفى ما في تلك الأمثلة من طباق ومقابلة، لكن ما الغاية من وجود الطباق أو مقابلة في الرسالة، لا شكّ أن هذه الفنون تخصّ الجانب المعنوي في الكلام، فوجود الكلام المتضاد يجلّي

المعنى في ذهن المتلقي، ويبرز الفكرة، فالضدّ يظهر حسنه الضد كما قيل، كما وظّف الكاتب فكرة الألوان في بيان معانيه، وهو ما يسمى في البديع بالتدبيج وهو توظيف الأديب للألوان في نصّه قاصدًا التورية بها والكناية بذكرها عن أشياء، كالمديح، والوصف، وغير ذلك من أمور(ينظر ابن معصوم، 1969م، ج118/6)، وجاء من ذلك في الرسالة قول الكاتب " مرّ الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية العباسية السوداء صِبْغًا، البيضاء صُنْعًا"(القلقشندي، 1916م، ج500/6)، وكثرة المحسنات البديعية في الرسالة سواءٌ منها اللفظية أو المعنوية تؤكد لنا طبيعة العصر، واهتمام الأدباء: الشعراء منهم والكتاب بهذه الصنعة البديعية، فالقاضي الفاضل يظهر في هذه الرسالة " ميله الشديد إلى التشخيص، كما يعمم ميله إلى ألوان البديع وخاصة لون الجناس، وكان ما يزال يستخدمه في جميع أشكاله من تامّة وغير تامّة"(ضيف، 2003م، 372)، والمتصفّح للرسالة يدرك مدى اعتناء القاضي الفاضل بالجوانب البلاغية التي تجعل من رسالته قصيدة شعرية لكثرة سجعه المتوازن، وإيقاع موسيقى سجعه المتناغم، واعتماده على التشخيص، " وأوتر لهم قسيّها التي تضربُ فلا تفارقها سهامها، ولا يفارق سهامها فصالها، فصافحت السور بأكنافه فإذا سهمها في ثنايا شُرُفاتها سواك، وقدّم النصر نسرًا من المنجنيق يُخلدُ إخلاده إلى الأرض ويعلو عُلُوه إلى السِّماك"(القلقشندي، 1916م، ج501/6)، فلا يخفى على المتلقي الإيقاع المتشكّل من تكرار بعض الألفاظ المشتملة على بعض الأصوات كصوتي السين والصاد مثلًا، فوق ما فيها من تشخيصٍ، كالمصافحة، والتسوّك، والتصوير الحركي، كالخلود إلى الأرض والعلو إلى السماء.

الخاتمة:

الرسالة الفاضلية رسالة بشارةٍ وتهنئةٍ في المقام الأول، وفي كل الأحوال فإنّ هذه الرسالة تحمل قيمتين أساسيتين هما: أوّلًا: القيمة التاريخية التي تمثّل تأريخًا للصراع مع الفرنجة، فهي أشبه بوثيقة تاريخية. وثانيًا: القيمة الأدبية، إذ تُعدُّ هذه الرسالة شاهدًا على أسلوب أدباء الكتابة الفنية في تلك الفترة، ولرسائل البشرى والتهنئة بالفتوح وقع خاصّ في النفوس، فالكتّاب عادة يعتنون بصياغتها، واختيار عباراتها، كما يقفون عند مفاصلَ مهمةٍ في بناء أفكارها، وقد كشفت الدراسة عن مدى اهتمام القاضي الفاضل بهذه الرسالة، فقد شرع في استخدام عبارات البشرى مراعيًا المقام الذي وجِّهت له هذه البشرى، وهو مقام الخليفة، كما حرص على فكرة نشر جوّ الفرح والسرور بهذه

الفتوح، وأفاض في إيراد سرد أخبار الفتوح وانتصار المسلمين على الفرنجة، وأدقّ في تصوير مشاهد المعارك، وحركات الجنود والتحامهم مع الفرنجة، كما وصف شجاعة الفرنجة، وقوة نزالهم في القتال؛ ليبيّن قوة عزائم المسلمين وشدة بأسهم في ملاقاة الأعداء ومصادمتهم، والانتصار عليهم؛ رغم كَثْرَتِهم وشدَّة مراسهم في القتال.

وقد تجلت في الرسالة فكرة الحرب العقدية، فالفرنجة يقاتلون المسلمين تحت راية الصليب، فجند الفرنجة متمسكون بعقيدة التثليث التي كررها الكاتب في الرسالة مرارًا، وصوّر جند الفرنجة وهم يقاتلون تحت ظلّ الصليب، وكلّهم بأسٌ وشدّة في بقائه مرفوعًا خفّاقًا، بينما أظهر الكاتب الجند المسلمين أصحاب العقيدة الصحيحة، وأهل الحقّ في الدفاع عن مقدساتهم وأوطانهم، فهم متمسِّكون بعرى الدين الحنيف، يرون في الجهاد نيلَ رضا الخالق، فهم مؤيَّدون بالنصر إن تمسَّكوا بشروطه، وعليه فقد أورد الكاتب كثيرًا من المعاني والصور التي تعود جذورها إلى القرآن الكريم.

وفي الجانب الفنّي أظهرت الدراسة أدبية هذه الرسالة، فقد وظّف الكاتب لغة أدبية واضحة وعبارات بلاغية تأنق في انتقائها، فالرسالة الفاضلية تحاكي قصيدةً شعريةً؛ لما فيها من عدول عن لغة الكلام المألوف، والميل نحو اللغة الشعرية المكثّفة القائمة على جمال التصوير، والجِرْس الموسيقي، فكان لشيوع السجع والجناس، وتردد بعض الأصوات أثرٌ في منح الرسالة إيقاعًا موسيقيًا خاصًّا، فاعتماد الكاتب بشكل مباشر على أخذ صور التراث الديني والأدبي ومعانيه، وتوظيفها في خيوط نسيج نصّه، زاد من أدبية الرسالة فنيًّا، علاوة على ما فيه من قداسةٍ، وبيانٍ، ووضوحٍ للمعاني.

وأسهمت المحسنات البديعية المعنوية في إيصال الفكرة بأوضح السُّبُل، فاعتماد الكاتب بشكل كبير على الطباق أعطى النصّ مساحةً كبيرة من الوضوح، كما وظّف الكاتب فكرة الألوان (التدبيج) في بيان المعنى وتجليته للفهم، والحقيقة أن الكاتب قد اتكأ على أصنافٍ عديدةٍ من حلية البديع؛ من أجل بيان ما يرمي إليه من معانٍ وصور فنية. وتحتاج الرسالة الفاضلية إلى دراسة أخرى مستقلة تعنى بحقل الشعرية فيها.

قائمة المصادر والمراجع:

1- ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد. (1939م): المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط1، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر.

2- ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد. (2004م): الوشي المرقوم في حلّ المنظوم، تحقيق يحيى عبد العظيم تقديم دكتور عبد الحكيم راضي، 2004م، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، الذخائر.
3- إسماعيل، عز الدين. (د.ت): المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي، مكتبة غريب، القاهرة.
4- الأصفهاني، عماد الدين. (2005م): خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء مصر، نشره أحمد أمين وشوقي ضيف وإحسان عباس، طبعة جديدة مصورة عن طبعة 1951م، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.
5- الأصفهاني، عماد الدين. (2004م): الفتح القُسّيّ في الفتح القُدْسيّ، ط1، دار المنار.
6- الحلبي، شهاب الدين محمود. (1980م): حسن التوسل إلى صناعة الترسل، تحقيق ودراسة: أكرم عثمان يوسف، ط1، دار الرشيد للنشر- الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والإعلام.
7- الحلبي، معالي عبد السلام. (2013م): رسائل القاضي الفاضل في السياسة في عهد صلاح الدين الأيوبي، تحقيق ودراسة، أطروحة جامعية لنيل درجة الماجستير في التاريخ، الجامعة الإسلامية، غزة.
8- الحموي، أبو بكر تقي الدين. (2005م): خزانة الأدب وغاية الأرب، دراسة وتحقيق الدكتورة كوكب دياب، ط2، دار صادر، بيروت.
9- الحموي، ياقوت. (1993م): معجم الأدباء، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
10- ابن خلدون، عبد الرحمن. (2004م): مقدمة ابن خلدون، حقّق نصوصه عبد الله محمد الدرويش، ط1، دار يعرب، دمشق.
11- ابن خلكان، شهاب الدين أحمد بن محمد. (1978م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، ط1، دار صادر، بيروت.
12- دجاني، هادية. (1993م): القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني دوره التخطيطي في دولة صلاح الدين وفتوحاته، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، تورنتو.
13- الدوخي، محمد بن إبراهيم: الشاهد في رسائل القاضي الفاضل، ت. 596 هـ من خلال - فصوص الفصول وعقود العقول لابن سناء الملك، ت. 608 هـ، مجلة العلوم العربية، جامعة

الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 2015م، العدد 34، ص189-234.

14- ابن الساعاتي، بهاء الدين علي بن رستم. (1939م): ديوان ابن الساعاتي، عني بتحقيقه ونشره أنيس المقدسي، ط1، منشورات كلية العلوم والآداب، الجامعة الأميركية في بيروت.

15- أبو شامة، عبد الرحمن المقدسي. (1997م): الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق إبراهيم الزيبق، ط1، بيروت، مؤسسة الرسالة.

16- ابن شداد، بهاء الدين. (2016م): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، الناشر مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة.

17- الشوابكة، محمد. (2006م): السرد المؤطّر في رواية "النهايات" لعبد الرحمن منيف- النية والدلالة، ط1، عمان، مطبعة الروزنا.

18- الصفدي، صلاح الدين. (2014م): فض الختام عن التورية والاستخدام، دراسة وتحقيق محمد عايش، ط1، عمان، الأردن، أروقة للدراسات والنشر.

19- الصفدي، صلاح الدين. (2000م): الوافي بالوفيات، تحقيق واعتناء: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ط1، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

20- ضيف، شوقي. (2003م): الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط13، القاهرة، دار المعارف.

21- عبد المهدي، عبد الجليل. (1989م): بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، ط1، عمان، دار البشير.

22- عبد المهدي، عبد الجليل. (1989م): بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية، ط1، عمان، دار البشير.

23- العمري: أحمد بن يحيى بن فضل الله. (2024م): التعريف بالمصطلح الشريف، دراسة وتحقيق الدكتور سمير الدروبي، ط2، عمان، وزارة الثقافة، مطابع أروى.

24- القلقشندي، أحمد بن علي. (1916م): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المطبعة الأميرية بالقاهرة.

25- مبارك، زكي. (2013م): النثر الفني في القرن الرابع، ط1، المملكة المتحدة، يورك هاوس، الناشر مؤسسة هنداوي.

26- ابن معصوم، علي صدر الدين المدني. (1969م): أنوار الربيع في أنواع البديع، حققه وترجم لشعرائه شاكر هادي شكر، ط1، النجف الأشرف، مطبعة النعمان.

27- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم. (د.ت): لسان العرب، بيروت، دار صادر.
28- ابن منقذ، أسامة. (2000م): كتاب الاعتبار، تحقيق وتقديم قاسم السامرائي، عمان، الأردن، منشورات وزارة الثقافة، مطبعة السفير.
29- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم. (1953م): مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق وتعليق وتقديم الدكتور جمال الدين الشيال، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية المطبعة الأميرية.